مجلة
الدراسات التأريخية

مجلة علمية فصلية تخصصية محكمة

ISSN 1998-815X

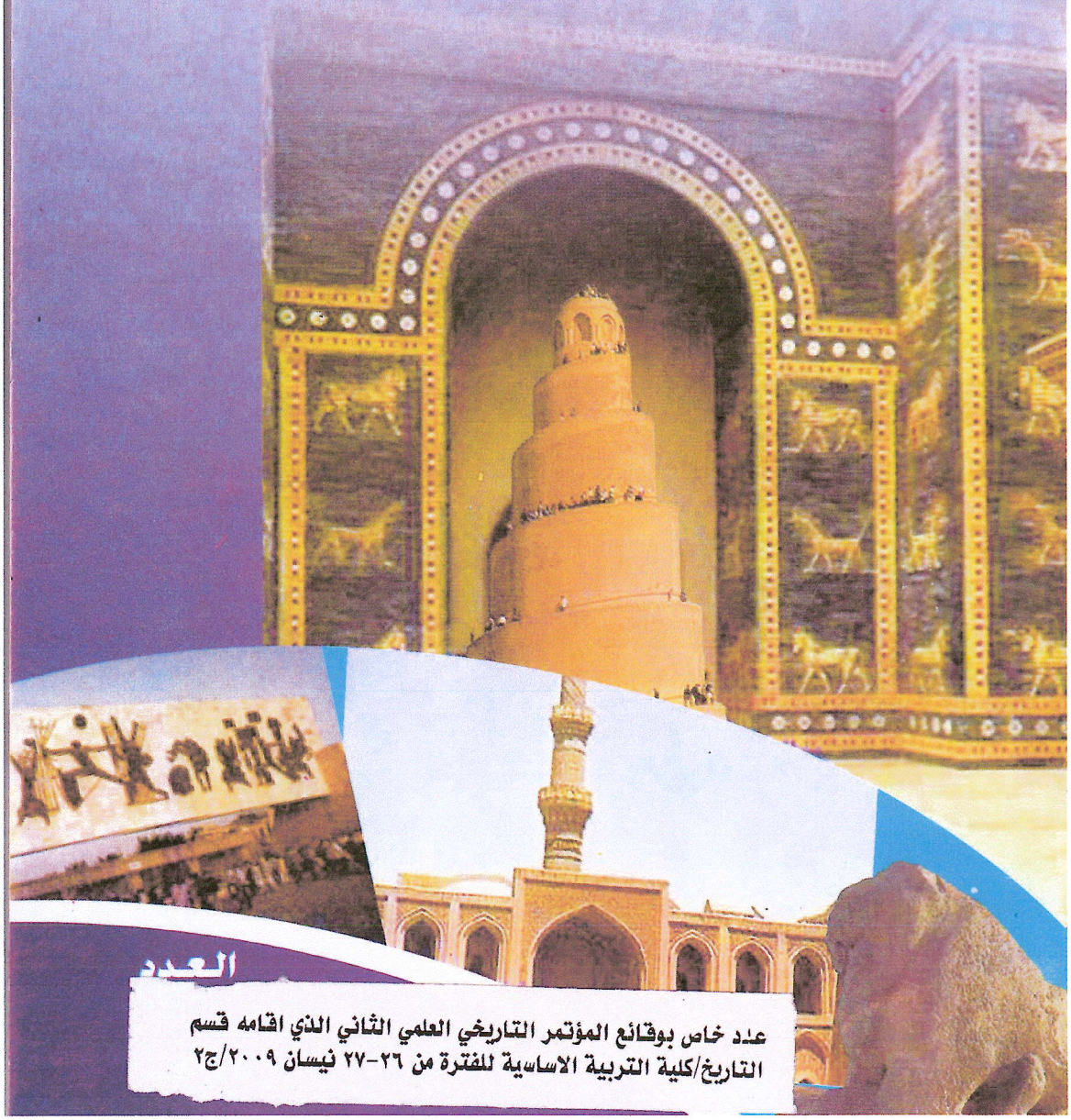

العدد

عدد خاص بوقائع المؤتمر التاريخي العلمي الثاني الذي اقامه قسم التاريخ/كلية التربية الاساسية للفترة من ٢٦-٢٧ نيسان ٢٠٠٩/ج٢

الحكم والإدارة في مصادر العصر العباسي
١٣٢ - ٦٥٦هـ / ٧٤٩ – ١٢٥٨م

د. ندى موسى عباس
قسم التاريخ / كلية التربية - الأصمعي
جامعة ديالى

المقدمة :

من حين لآخر تحتاج الأمم إلى من يُذكِر حكامها ومتولي شؤونها بالقيم الأخلاقية النبيلة والمبادئ السامية لكي لا تهدم البنية التحتية لأساس لحكم والإدارة فيها ، فهذه القيم تشكل اللبنة الأساسية للفكر والثقافة والآداب والسياسة والمجتمع لأي امة كانت ، وعلى عاتق مفكريها وعلمائها يقع الجزء الأكبر من هذه المهمة .

في عصر الخلافة لعباسية (١٣٢-٦٥٦هـ/٧٤٩-١٢٥٨م) وهو عصر الإنتاج الأصيل المبدع في مختلف الفروع العلمية والفكرية والثقافية لشتى مجالات الياة ، نضج الخطاب السياسي وبدأ المؤلفون يُلمِحون إلى واقع إسلامي يشير إلى تحول الخلافة الإسلامية من زعامة دينية إلى سلطة ملكية وينتبون على ضوء ذلك بمعنى إنها طالما أصبحت حقيقة واقعة فإذن يجب أن تكون على أساس نظامي مدروس وبتقاليد مرسومة بإتقان .

ظهرت المؤلفات الأدبية التوجيهية والفلسفية الفكرية في القرون الأربعة العباسية ، وقد استقت مادتها الغزيرة من كتب التاريخ والأدب العربي والفلسفة الإسلامية ، وتحولت من خلال عنايتها بالآداب السلطانية إلى ظاهرة ثقافية في المجتمع العربي الإسلامي ، مركزة مواضيعها على طبائع الملك وأحواله ومواصفات رجاله وأخلاقياتهم وسلوكياتهم وسياستهم في تدبير وإدارة دولهم ، مقدمة لهم النصح في الشؤون الإدارية لتعينهم في مسك دفة دولة قوية مرهوبة الجانب ، عادلة منصفة كريمة سمحة في معاملة رعيتها .

لعل أهم ما أفرزته هذه المؤلفات هو ذلك الربط القوي والدقيق بين الواقع العملي التطبيقي وبين الجانب النظري التصحيحي ، فبرزت من خلال هذا الربط صور ونماذج وحلول ودراسات للطرق المثالية الناجعة في الإدارة والحكم برؤية واضحة وبمنظور عملي وعقلاني ، وتكشفت لنا من خلالها المراحل التاريخية لتطور الفكر السياسي للدول الإسلامية في ثنائية الحاكم والرعية .

دار البحث بثلاثة محاور تناول الأول القيمة العلمية لهذه المؤلفات ودرجة عناية مؤلفيها لحث ذوي الشأن من حكام ورجال دولة للاهتمام بقراءتها والاطلاع عليها ، وأستعرض الثاني الأسباب والعوامل التي أدت إلى ظهور هذا النوع من الأدب والفكر السياسي والاجتماعي الرفيع المستوى ، فيما ركز المحور الثالث على بيان المضمون والمحتوى وأهم المواضيع التي تناولتها هذه المؤلفات .

المبحث الأول : القيمة والأهمية : ـــ

أشارت عناوين المؤلفات في الآداب السلطانية إلى لون واتجاه جديد في التأليف ، فتارة هي الآداب السلطانية وتارة هي نصيحة الملوك وحين آخر هي مرايا الأمراء ، ولكي يعطي أي مؤلف القيمة العالية لكتابه فعليه إذن أن يعتني باختيار عناوين مؤثرة وجذابة، ولذا فقد أستعار الكتاب لكتبهم كنى من أسماء المعادن النفيسة كمثل التاج في أخلاق الملوك للجاحظ واللؤلؤة في السلطان والمرجانة في مخاطبة الملوك لأبن عبد ربه والتبر المسبوك في نصيحة الملوك للغزالي ، أو تشبيهها بالأنوار في العتمة كمثل سراج الملوك للطرطوشي ، وهي أصلاً باعتبار المؤلفون دليل عمل لممارسة السلطة فهي النهج المسلوك في سياسة الملوك للشيزري وسلوك المالك في تدبير الممالك لأبن أبي الربيع الإشارة في تدبير الإمارة للمرادي وسير الملوك (سياسة نامة) لنظام الملك ووصايا الملوك وأبناء الملوك لدعبل الخزاعي ، وتحفة الوزراء ، وقوانين الوزارة وسياسة الملك أو مايعرف بـ (أدب الوزير) للماوردي ، وقد توافقت هذه العناوين عموماً مع مضمون القضايا التي عالجوها في كتبهم والأفكار والمسائل التي طرحوها .

أضفى المؤلفون الكثير من الأهمية على كتبهم عندما عملوا على إهداءها إلى رجال السلطة من الحكام والإداريين ، بمعنى إنهم اختاروا بعناية قرائهم ، وحددوا بدقة لمن يكتبون ، وقد تضمنت هذه الاهداءات التصريح المباشر بعبارات الثناء والولاء للمهدى اليه ،

وبذلك يكون الحاكم هو القارئ الأول للكتاب ، خاصة إذا ما كان التأليف موجه بالأساس له ، ومن ثم سيدفع الفضول الرعية من المثقفين وغيرهم إلى الرغبة لقراءته فالناس على دين ملوكهم . وعموماً تبقى إهداءات المؤلفين لكتبهم خير وسيلة للإشارة إلى أهميتها وضرورة الاطلاع عليها ، والحث على التمثل بما جاءت به من نصائح .

في حالات الإهداء قد يبادر المؤلف من تلقاء نفسه بتأليف كتابه خصيصاً للحاكم (الخليفة أو الملك أو السلطان أو الأمير) أو لأحد من كبار رجال الدولة كالوزير وغيره ، فقد أهدى مثلاً الجاحظ (المتوفى سنة٢٥٥هـ /٨٦٨ م) كتابه التاج إلى الأمير الفتح بن خاقان (المتوفى سنة٢٤٧ هـ / ٨٦١ م) وزير الخليفة العباسي المتوكل (٢٣٢ -٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦١ م) وذكر سبب إهداءه بقوله : ''... وأن نُخصَّ بوضع كتابنا هذا الأمير الفتح بن خاقان مولى أمير المؤمنين إذ كان بالحكمة مشغوفا ، وعلى طلبها مثابراً وفيها وفي أهلها راغباً ليبقى له ذكره ويحيا به أسمه ما بقي الضياء والظلام ...'' (١) .

أهدى الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م) كتابه تحفة الوزراء إلى الوزير أبو عبد الله الحمدوني وزير الأمير أبو العباس مأمون بن مأمون خوارزم شاه (٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م) مشيراً إلى سبب الإهداء بقوله : ''خطر لي أن أخدم وزيره الأعظم [الأمير خوارزم شاه] ومشيره مستغنياً عن ذلك لسلوكه تلك المسالك ، وإنما

قصدت به استجداء مواهبه الجسام ومكارمه العظام ووسمته بتحفة الوزراء ،، (٢) .

سجل المرادي(المتوفى سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥ م) إهداء كتابه السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة للأمير المرابطي أبي بكر بن عمر مخاطباً إياه : ''... نظمت لك في هذا الكتاب درراً من آداب الإمارة والوزارة ، وفصلت لك ثناياه فصولاً من أنواع الإدارة والاستشارة ...'' (٣) . وأهدى الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١ م) كتابه التبر المسبوك للسلطان محمد بن ملك شاه السلجوقي (٥٤٧ – ٥٥٧ هـ / ١١٥٢ – ١١٥٩ م)(٤) ، وبين الطرطوشي (المتوفى سنة ٥٢٠هـ /١١٢٦ م) سبب إهداء كتابه سراج الملوك إلى الوزير الفاطمي نظام الدين أبو عبد الله بن فاتك البطائحي وزير الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله بقوله : ''... وأعلموا وفقكم الله أن أحق من أهديت إليه الحكم وأوصلت إليه النصائح وحملت إليه العلوم ، من أتاه الله سلطاناً فنفذ في الخلق حكمه وجاز عليهم قوله ... ولما رأيت الأجل المأمون تاج الخلافة عز الإسلام فخر الأنام نظام الدين خالصة أمير المؤمنين أبا عبد الله محمد الأموي أدام الله لإعزاز الدين نصره وأنفذ في العالمين بالحق أمره ... فقد تفضل الله به على المسلمين فبسط فيهم يده ، ونشر في مصالح أحوالهم ... وتقلد أمر الرعية وسار على أحسن قضية متحريا للصواب راغباً في الثواب طالباً سبيل العدل ومناهج الأنصاف والفضل رغبت أن أخصه بهذا الكتاب رجاء لطف الله كما قيل :

الناس يهدون على قدرهم لكنني أهدي على قدري
يهدون ما يفنى وأهدي الذي يبقى على الأيام والدهر ،،(٥)

ذكر الشيزري(المتوفى سنة ٥٩٠هـ /١١٩٣ م) سبب إهداء كتابه النهج المسلوك في سياسة الملوك للسلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي بقوله : '' لما كان المولى الناصر صلاح الدين يوسف ملك الإسلام والمسلمين ... أدام الله دولته ... ممن يعز الأدب وفضله ويؤثر العلم وأهله ضممت لخزانة علومه هذا الكتاب وهو يحتوي على طريف من الحكمة ومن الأدب وأصول من السياسة وتدبير الرعية ومعرفة المملكة وقواعد التدبير وقسمة الفيء والغنيمة على الأجناد ... مع نوادر الأخبار وشواهد من الأشعار وفصلته أبواباً تتضمن حكايات لائقة ومواعظ شائقة وحكماً بالغة ...'' (٦) .

في أحيان يكون الحاكم هو من يطلب تأليف الكتاب من مؤلف معين في موضوع يحدده فأوامره مطاعة مجابة ، كطلب الخليفة العباسي هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ / ٧٨٦ - ٨٠٨ م) من قاضي القضاة أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢هـ / ٧٦٨ م) أن يؤلف له كتاب في الخراج وذكر ذلك بقوله :'' إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج والعشور والصدقات والجوالي [الذين يرحلون عن موطنهم] وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به '' (٧) .

يختار الحاكم في أحيان الموضوع ولا يحدد المؤلف فيؤلف عدد من الكتاب في الموضوع المخصص فتكون كالمسابقة الفائز فيها

هو من يختار الحاكم كتابه باعتباره الأفضل بين الكتب للقراءة والاحتفاظ به في خزانته ، مثلما حدث مع الوزير نظام الملك (المتوفى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م) وكتابه سياسة نامة فقد أمر السلطان ملكشاه (٤٦٥ -٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ - ١٠٩٢ م) سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م عدداً من أكابر رجال البلاط أن يتأملوا نظام الحكم القائم وينظروا إلى ما سقط من السنن الصالحة التي كان الملوك القدامى يسيرون بها في الناس ويقترحوا خير الوسائل لإصلاح نظام الحكم مسترشدين في ذلك بما حفظ التاريخ من أخبار الملوك السالفين للعظام ، فكتب كل واحد منهم ما عن لخاطره مبيناً العيوب مقترحاً الإصلاح ورفعوا كتبهم جميعاً إلى السلطان فأعجبه ما كتب وزيره نظام الملك معلناً أنه سوف يتخذ ما كتبه نظام الملك إماماً يسير على هداه في الإصلاح وعندما ظفر الوزير نظام الملك برضا السلطان أسترد الفصول التي رفعها إليه، وكانت تسعة وثلاثين فصلاً هي الفصول الأولى للكتاب ، فرأى إنها مختصرة جداً عندها شرع يزيد فيها ويضيف إلى كل فصل ما يليق به من نكت وشواهد وقصص عازماً على أن يجعل منها كتاباً يزداد به المجلس تنبهاً وتفطناً ويعلم بخلاصة اعتقاد مؤلفه المخلص [٨] .

أما بالنسبة إلى أبن أبي الربيع (المتوفى في القرن السابع الهجري) وكتابه سلوك المالك في تدبير الممالك فبغض النظر عن الاختلاف فيمن أهدي إليه الكتاب إلا إن الذي عرف وشاع هو إهدائه إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ/ ١٢٤٢-١٢٥٨م)[٩] .

المبحث الثاني : الأسباب والعوامل : ـــ

ظهر التأليف في الآداب السلطانية كنمط خاص تحديدا في عصر الخلافة العباسية في العراق أولاً باعتبار وجود مركز الخلافة فيه ، قبل أن ينتشر في باقي الأمصار الإسلامية الأخرى ، وان كانت هناك من قبل بضعت رسائل مشهورة في سياسة الرعية وإدارة الأمصار من بعض الخلفاء الراشدين كالخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)(١٣ – ٢٣هـ/ ٦٣٤– ٦٤٣م) [١٠] ، والخليفة الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)(٣٥– ٤٠هـ/ ٦٥٥ – ٦٦٠م) [١١] ، أرسلوها لولاتهم وعمالهم ينصحونهم ويوجهوهم إلى السياسة السليمة والتدبير الناجع في الحكم والإدارة لرعاية مصالح الدولة والرعية ، وهي على شكل وصايا برسائل متفرقة ، والأمر نفسه بالنسبة للخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ/ ٧١٧– ٧١٩م) [١٢] .

يعد كتاب عبد الله أبن المقفع(المتوفى سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م) كليلة ودمنة أول كتاب ظهر في الآداب السلطانية ترجمه أبن المقفع في البصرة من اللغة الفارسية القديمة (الفهلوية)[١٣] إلى اللغة العربية بعهد الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور(١٣٦-١٥٨هـ/٧٥٣- ٧٧٤م) ، وسواء أكان الكتاب من تأليفه أم إنه فعلاً قد قام بترجمته فهو على كل حال يشير إلى إن الكتاب في الأصل هندي مهدا من الفيلسوف بيدبا إلى ملك الهند دبشليم بطلب منه [١٤] ، ولعل هذا هو سر اشتهاره في بادئ الأمر فالمعروف إن الكتب التي ترجمت في العراق بعصر الخلافة

العباسية كانت أحدى أهم العوامل والمسببات للفوران الثقافي والنشاط الفكري والغزارة في الإنتاج العلمي عند العرب المسلمين .

لعل السؤال المهم الذي يقفز إلى الذهن هنا هو : ما هي الأسباب أو العوامل التي أفرزت هذا النوع من الكتابات في العراق بالذات ؟ وفي العصر العباسي خاصة ؟ وفيما يأتي تلخيص لبعض العوامل والمسببات التي نعتقد إنها كانت وراء هذه الظاهرة الثقافية :ـ

١- تغير نظام الحكم :

كان من نتائج الفتح الإسلامي وانتشار الإسلام في الأمصار التي كانت تحت سيطرة دول وإمبراطوريات عريقة في السياسة والحكم والإدارة ، أن تسربت مفاهيم وقيم وسلوكيات إلى الفكر والثقافة العربية والإسلامية وفي خضم النشاطات الفكرية والثقافية والسياسية التي كان يغلي بها المجتمع العربي الإسلامي ، ظهرت طبقة من الأدباء والكتاب والمؤرخين متسلحين بالوعي والمعرفة بتراثهم وديـنهم متصدين للسلطة التنفيذية نصحاً وعظة وتذكيراً بالعدل والإنصاف وحثاً على التفقه والعلم والمعرفة .

من التأثيرات الأخرى أن أنقلب نظام الحكم العربي الإسلامي من نظام الخلافة إلى نظام الملكية المستبد التي شابها الكثير من الفساد والظلم ، ومع توسع مرافق الدولة الإدارية والخدمية ظهرت حالات الضعف والتسيب واللامبالاة لرجال السلطة من الحكام والإداريين والقادة العسكريين وخاصة في عهد سيطرت القوى الأجنبية فأصبح من الضروري التذكير بواجب الحاكم في أنصاف رعيته .

يعتبر الجاحظ إن واجب الرعية احترام وطاعة الحاكم وان لم تكن تؤمن بأحقيته للحكم وهو ما أراد أن يؤكد عليه في كتابه وهذا هو سبب تأليفه لكتابه التاج إذ انه أراد تنبيه الرعية إلى آداب التعامل مع الحكام من الملوك والسلاطين بقوله :'' إن أكثر العامة وبعض الخاصة لما كانت تجهل الأقسام التي تجب لملوكها عليها ، وأن كانت ممسكة بجملة الطاعة ، حصرنا آدابها في كتابنا هذا لنجعلها قدوة لها وإماماً لتأدبها ''[١٥] ، كما بين الجاحظ موجبات هذه الطاعة بقوله : ''إن الله عز وجل لما خص الملوك بكرامته وأكرمهم بسلطانه ومكن لهم في البلاد وخولهم أمرَ العباد ، أوجب على علمائهم تعظيمهم وتوقيرهم وتعزيزهم وتقريظهم كما أوجب عليهم طاعتهم والخضوع والخشوع لهم ... ''[١٦] ، ويرى الجاحظ إن هذا التنبيه هو واجب والتزام ديني وأخلاقي مفروض عليه ومطلوب منه وله فيه من الله الآجر والثواب قائلاً :'' ... وأيضا فأن لنا في ذلك أجرين أما أحدهما فلما نبهنا عليه العامة [العامة] من معرفة حق ملوكها وأما الآخر فلما يجب من حق الملوك علينا من تقويم كلِّ مائل عنها وردِّ كلِّ نافرٍ إليها ...'' [١٧]

٢- النصح :

يمكن أن نعد النصح دافع قوي للتأليف في الآداب السلطانية ، للواجب الشرعي في تذكير الحاكم ورجال دولته بالسياسة العادلة فأبن المقفع يشير لهذه المسألة بقوله على لسان الفيلسوف الهندي بيدبا : '' ... كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول : إن الملوك لها سكرة [غفلة] كسكرة الشراب فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ تقويم الملوك

بألسنتها وتأديبها بحكمتها وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج والخروج عن العدل ،، [١٨] ، ويشير ابن المقفع أيضا إلى إن النصيحة هي سبب تأليف الفيلسوف الهندي لكتابه بإفصاحه مخاطباً الملك :،، وقد جعلت لك في هذا الكتاب شمل بيان الأمور وشرحت لك جواب ما سألتني عنه ... وضعت لك من النصيحة والموعظة مع أنه ليس المنصوح بأولى بالنصيحة من الناصح ولا الآمر بالخير بأسعد من المطيع له فيه ... ،، [١٩].

في خطابه للأمير المرابطي أبو بكر بن عمر يقول المرادي: ،، نظمت لك في هذا الكتاب درراً من آداب الإمارة والوزارة ، وفصلت لك ثناياه فصولاً من أنواع الإدارة والاستشارة ...،، [٢٠] أما الطرطوشي فيرى إن دراسة كتابه من قبل الحاكم تغنيه ،، عن مشاورة الوزراء،، [٢١] ، ونجد الغزالي ينصح بقراءة كتابه ويشير إلى الفائدة الكامنة فيه للحكام والإداريين ، والفائدة له هنا كما يعتقدها الغزالي مزدوجة من الأجر والثواب بكون الدين النصيحة ، فللرعية بحثه الحاكم على النظر بمصالحها ، وللحكام لأنه يحث الرعية على الطاعة الواجبة لهم وما يؤدي ذلك إلى تقوية الدولة وهي بالنهاية دولة الإسلام ،[٢٢] فيقول :،، يجب على الملوك العقلاء والأفاضل الألباء أن ينظروا في هذه الأخبار ليأخذوا نصيباً من أيام دولتهم وينصفوا المظلومين ويقظوا حوائج السائلين ... أن يشتاق أبداً إلى رؤية العلماء ويحرص على استماع نصحهم وأن يحذر من علماء السوء الذين يحرصون على الدنيا ...،، [٢٣] ، وينقل الغزالي أقوال عن بعض

الصوفية مثل قول سفيان الثوري :'' خير الملوك من جالس أهل العلم ويقال أن جميع الأشياء تتجمل بالناس والناس يتجملون بالعلم ...'' (٢٤) ، ولذلك لا يفتأ الغزالي حاثاً السلطان ملك شاه على قراءة كتابه قائلاً له :'' فإذا طلعت الشمس فأمر قارئاً يقرأ عليك في كل جمعة ليحصل في محفوظك''. (٢٥)

عموما فأن هذه النصائح يمكن أن تنطبق على أي حاكم أو وزير أو إداري ، وهي توصي المعنيين بالالتزام بها (٢٦) ، وتبين خطورة إهمالها وتذكّر رجال الحاكم عما غفلوا عنه من وجوه العدالة والأنصاف وتدبير معاملة الرعية كي لا تفسد ويصعب أصلاحها ، وأهمية انتقاء الرجال والأتباع وفق المواصفات المحددة لتسير الدولة سيراً مستقيما مستديماً .

٣ – العلم والمعرفة :

يعتبر الوعي لأهمية العلم عموماً ودروس التاريخ خصوصاً في التوجيه والإرشاد من بين أبرز الأسباب التي كانت وراء ظهور التأليف في هذا النوع من المواضيع في عصر نهضة الحضارة العربية الإسلامية فالفارابي يشير إلى هذا المعنى بقوله : ''... فليس في فطرة كل إنسان أن يعلم من تلقاء نفسه ولا الأشياء التي ينبغي أن يعلمها بل يحتاج في ذلك إلى معلم ومرشد '' (٢٧) .

عشقت نفوس العرب المسلمين العلم والمعرفة خاصة مع تفتح قرائحهم وعقولهم ، حتى وقع عندهم طلب العلم والحث عليه من

مستحبات أمورهم ، وكان العلم على الحكام ورجال الدولة واجب مفروض عليهم فالإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله : '' من نصب نفسه للناس إماماً ... فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطعمة والرأي واللفظ والأخدان فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه ، فأنه كما أن كلام الحكمة يوفق الأسماع فكذلك عمل الحكمة يروق العيون والقلوب ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم ...'' (٢٨) .

يشير الجاحظ إلى أهمية العلم والمعرفة للحكام والإداريين من رجال الدولة بقوله : ''العلم والأدب أليق بالحكام '' ويستشهد لذلك بقول الخليفة المأمون : '' والله أن أموت طالباً للأدب خير لي أن أعيش قانعاً بالجهل ''(٢٩) ، كما رأى الثعالبي في كتابه تحفة الوزراء ضرورة جلوس الحكام (السلاطين) بين العلماء والعقلاء ''... لتدبير الأمور وسياسة الجمهور ... وأن يكون طاباً للعلم ليعلم من العلماء ... ويربي الأدباء ليتفرع عنه الأدباء ''(٣٠) ، ما الشيزري فيوضح أهمية العلم للحاكم بقوله : ''... ولا محالة إذا كان ملك المدينة خالياً من العلم ركب هواه وتخبطه ما يليه إذ لا تحجبه فكرة سليمة ولا تمنعه حجة صحيحة ... وإذا كان الملك عالماً كان له من علمه رادع يقمع هواه ويميل به إلى سنن الحق ...'' فالحاكم '' إذا لم يطرزه علم كان مذلة آجلة والعلم إذا لم يؤيده عقل كان مضلة عُجلة ...'' وقوله نقلاً عن الحكماء :'' إذا أراد الله بأمة خيراً جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم ''(٣١) .

مما تقدم نفهم الربط بين العلم والمعرفة وبين الحكمة المطلوبة والسياسة الناجحة الموفقة وفي وصية لملك من ملوك اليمن لولي عهده نلمس هذا المفهوم من قوله : ''... وأستكثر من العلم فأنه أساس التدبير وما ليس له أساس فمهدوم ''[٣٢] ، ويرى الطرطوشي على ضوء نفس المفهوم إن العلم يهدي وهو باقي على مر الزمان لأنه '' عصمة الملوك والأمراء ومعقل السلاطين والوزراء لأنه يمنعهم من الظلم ويردهم إلى الحلم ويصدهم عن الأذية ويعطفهم على الرعية فمن حقهم أن يعرفوا حقه ويكرموا حملته ويستنبطوا أهله '' [٣٣] ، وفيما يذكر أبن أبي الربيع إن الاسكندر سأل حكيماً :'' من يصلح للملك ؟ فقال له : أما بملك حكيم أو ملك يلتمس الحكمة '' ، فالحاكم كما يحتاج الوزير يحتاج أيضا إلى حكيم مجرب له معرفة بعلوم متعددة [موسوعي] وان يكون ... كثير الاطلاع على الكتب القديمة ... [٣٤] ولأن'' تدبير الجاهل يقع مخالفاً للشرع فيكون وبالاً '' [٣٥] .

يرى الفارابي إن للقراءة والاطلاع على تجارب الحكام والإداريين فوائد عديدة منها اكتساب مهارة الكشف عن غوامض الأمور وفهم أعمق للجوانب النفسية ودواخلها وقراءة أفكار الآخرين فتزداد كفاءة وقوة الحاكم أو الإداري ، وتحقق له وفرة أكبر في الخبرة الإدارية في قيادة دفة البلاد ورعاية العباد ، ولذا كلن عليه أن يكون جيد الحفظ والفهم حب للتعليم والاستفادة لا يؤلمه تعب العليم ولا يؤذيه الكّد الذي يناله منه [٣٦] .

يشير المرادي إلى إن من حفظ كتابه فقد حوى قدر كبيراً من الحكمة وتعلم أصلاً عظيماً من السياسة : ''... وقد ذكرت لك في هذا الكتاب من ذلك أبواباً إذا أحطت بحفظها علماً وانعطفت تحفظها فهماً كانت لك ميزاناً تزن بها آدابك وميداناً تروض فيه أخلاقك وأصلاً تسند إليه قياسك وجبلاً توطد عليه أساسك '' (٣٧) .

إذن ففضائل قراءة كتب الآداب السلطانية لها وجوه متعددة من مثل استخلاص الدروس من التجارب التي تمنح المطلع عليها غزارة بالمعلومات وترفع كفاءته الإدارية ، ومنها أخذ العظة والعبرة والتبصرة ، وهي بعد مستراح الملوك من كد الجد والتعب وتشبع فضولهم بتناقل أخبار من سبقهم من الملوك والخلفاء وكبار رجالات الدول بما تحتفظ به هذه الكتب من مقتطفات في سيرهم ، ويشير الجاحظ إلى إن تأليفها فرض عليه ككاتب بقوله : ''أن نصرف عنايتنا إلى ما يجب للملوك من ذكر أخلاقها وشيمها إذ فضلها الله على العالمين وجعل ذكرها في الباقين إلى يوم ...'' (٣٨) وهو ما يشير إليه أيضا المرادي بقوله : '' وأعلم إن الملوك العلماء بقيت من العلم أذكارهم وأن الملوك الجهال ماتت معهم أخبارهم '' (٣٩) وكذلك الوزير العالم فإنه إن قلد مهمات الأمور '' نهض فيها يسكنه الحلم وينطقه العلم وتكيفه اللحظة وتغنيه اللمحة ...'' (٤٠) ، وبالعلم '' تتضح له حقيقة الأمور ...'' (٤١) .

٤ – الرغبة في التأليف :

شغل بعض المؤلفين وظائف إدارية فاكتسبوا خبرة واسعة حفزتهم على الكتابة في هذا المجال ، إذ وجدوا في تجربتهم ما اعتقدوه مفيداً للعلم والمعرفة وخدمةً المجتمع ، ومنهم الماوردي ومع ذلك فقد أوصى أن لا ينشر كتابه إلا بعد وفاته (٤٢) ، وكذلك الوزير نظام الملك في كتابه – سياسة نامة – الذي ترجم كتابه إلى العربية بفصوله الخمسة ، كشف فيه بوضوح تام نواحي مهمة من أوضاع الحكم وأجهزة الإدارة ، واضعاً فيه عصارة أفكاره وتجاربه بغية تعليم السبل التي تدار بها الممالك والدول والإرشاد إليها ، والكتاب غني بالآراء الحكيمة والنصائح والحكايات التي تدور حول سياسة الحكم والمنهج الرشيد في تسيير شؤون الدولة . وقد رأى نظام الملك إن بنيان المملكة والحفاظ عليها لا يقوم إلا على العدل المطلق وقد نبه على هذه الناحية مرات بصورة شتى .(٤٣)

المبحث الثالث : المحتوى والمضمون : ـــ

أصبحت المؤلفات في الآداب السلطانية أو مرايا الأمراء نوع من الثقافة السياسية ، فرفدت التراث والثقافة العربية الإسلامية بالعديد من المصنفات كماً ونوعاً ، فمنها ما كان مستقلاً مباشراً بعنوانه ومنها ما حوى على فصول وأبواب وعناوين جانبية ، وحوت على مواضيع تنوعت ما بين أساطير وقصص وتجارب شخصية ونصوص شعرية ونثرية وخطب ورسائل ووصايا وأمثال وحكم .

اتخذت كتب الآداب السلطانية لها أرضية تاريخية من تراث الأمم والحضارات السابقة للإسلام الشرقية منها كالفارسية والهندية واليمنية والغربية كالإغريقية واليونانية والرومانية ، مع الحفاظ على الأرضية الشرعية لثوابت المسلمين المرجعية المتمثلة بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة . وهي لم تعتمد التنظير كمنهج إنما كانت عبارة عن نصوص لتجارب متنوعة في محاولة لبيان قواعد سلوكية تنظيمية بنصائح أخلاقية وبأسلوب تعليمي تهذيبي وإرشادي على أمل توجيه السلطة التنفيذية برسوم ملوكية تضفي عليها الهيبة ، والحث على التزام لدولة بسياسة العدل والرحمة والأنصاف في معاملة الرعية وكره الظلم والبطش .

يعتبر عبد الله أبن المقفع هو أول من بدأ هذا النوع من الكتابات ومع إن العرب عرفوا مساة التشبيه بين سلوكيات وطبائع الحيوان وسلوكيات وطبائع البشر [٤٤] . إلا إن كتابه كليلة ودمنة تفرد بقصص رمزية رويت على لسان البهائم والطير بطريقة أدبية ذكية ، وقد وضع أبن المقفع مع كل قصة حكمة أو مثل يلخص بهما مغزى القصة ، وطغت على هذه القصص السمات الأخلاقية والطابع الاجتماعي، وفي مصارحات خطيرة موجهة بشكل غير مباشر للحاكم، جاءت على لسان الحيوان والطير ، فأبطاله من الحيوان والطير يتصرفون كما الإنسان يتحاورون ويتعاطون مع الأفكار والأشياء وينطقون بالحكمة والعقل وحسن التصرب والدهاء والمكيدة والخبث والذكاء والغباء [٤٥] ، في محاولة لزرع احكمة والعدل والمحبة بين

الناس والتعايش مع بطش وقسوة الحاكم ، إلا إن الخدعة لم تنطلي على الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور فأنه أمر واليه على البصرة بأن ينهي حياة أبن المقفع فأنهاها الأخير بطريقة مأساوية (٤٦) .

لم يخفي الجاحظ في كتابه التاج في أخلاق الملوك إعجابه بالتجربة الفارسية في الحكم والإدارة (وكان العرب الأكثر احتكاك بها لقربهم منها) وتصريحه بأخذ الشيء الكثير منها ، ومن ثم كيفها لتنسجم مع الحكام العرب المسلمين ، وغرضه أن يتعلم كل من الحكام والرعية كيفية التعامل مع بعضهم البعض ، وقوله في الاقتباس من التجربة الفارسية :'' أخذنا قوانين الملك والمملكة في ترتيب الخاصة والعامة وسياسة الرعية وإلزام كل طبقة حظها والاقتصار على جديلتها '' (٤٧) .

ذكر الجاحظ رسوم خاصة في آداب الدخول على الملوك من قبل كل طبقة من طبقات الخاصة والعامة وفي المجالسة والانصراف والمنادمة ولمحادثة والمسامرة والشرب واللهو والمؤاكلة والتجمل والتعزية وغيرها من المواضيع في الطبائع والتهذيب الأخلاقي يتخللها صورة النظم الفارسية والقصص العربية (٤٨). وقد أسهب كعادته في القصص والحكايا عن الملوك الساسانيين والخلفاء والأمراء العرب المسلمين ، أما كتابه تنبيه الملوك والمكايد فقد أورد فيه عدد كبير من القصص في الحيل ومكايد الملوك والوزراء والأمراء الفرس والروم والعرب قبل وبعد الإسلام لغرض التحذير والاحتراز (٤٩) .

حفلت كتب الأدب والأخبار بالوصايا ومنها وصايا الملوك والخلفاء والأمراء وهي عبارة عن نصائح مستقاة من خلاصة تجارب قد يكون أصحابها دفعوا ثمناً غالياً لها ، وهدفهم من إيرادها هو تجنيب أحبتهم من الوقوع فيها ، نذكر منها كتاب دعبل الخزاعي وصايا الملوك وأبناء الملوك وهو وصايا لملوك اليمن في شؤون الملك ، بدئها بوصية من نبي الله هود (عليه السلام) ومنتهياً بوصية آخر الملوك من الغساسنة في بلاد الشام ، واشتملت الوصايا على قصص وحوادث نسبها دعبل إلى ملوك اليمن وتاريخهم العظيم المتآلف من أخبار وأشعار ونثر وكل ذلك برواية أبنه علي بن محمد بن الدعبل بن علي الخزاعي (٥٠)

حاول أبن قتيبة الدينوري (المتوفى سنة ٢٧٦هـ/ م) التأكيد على آداب ورسوم وتقاليد (الأتكيت الملوكي) فصنف في كتابه عيون التواريخ أبواباً من سير الملوك وآثار السلف فخصص الكتاب الأول للسلطان وفيه أخبار السلطان وسيرته وأحواله ، وما يحتاج إليه الحاشية أو الرعية من الآداب في صحبة الملك والتلطف في مخاطبته الملوك ومشاورته ، وما يجب على الملك في اختيار القضاة والحجاب والكتاب وآداب الحرب والجيوش عددها وسلاحها وقد أكثر الدينوري النقل عن الفرس والهند فضلا عما أورده عن العرب قبل وبعد الإسلام (٥١) .

لم يختلف العقد الفريد لأبن عبد ربه (المتوفى سنة ٣٢٨هـ / ٩٣٩م)عن كتاب عيون التواريخ ويرجع ذلك إلى تأثر أبن عبد ربه

بأسلوب أبن قتيبة ، فاللؤلؤة في السلطان هي كتابه الأول في نصيحة السلطان بحسن سياسته في أقامة مملكته وفي اختياره لوزرائه وعماله، وفي توليته وعزله لولاته وبسطه العدل في رعيته وحزمه وحلمه معهم وحسن السيرة والرفق بهم (٥٢) وكتابه الفريدة في الحروب في مشاورة الحكام (خلفاء وملوك وأمراء) في الحروب والعمل فيها ووصية أمراء الجيوش في المكائد والتحفظ من العدو ، وصفة الفرسان العرب قبل وبعد الإسلام والسلاح وصنوفه وتدريباته (٥٣). وكتابه المرجانة في مخاطبة الملوك ومراسلاتهم ومدحهم والتزلف لهم وحسن التوفيق بذلك (٥٤).

فيما أكد الابشيهي (المتوفى سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م) في كتابه المستطرف على نفس فكرة الجاحظ في كتابه التاج عندما خصص الباب الرابع عشر لموضوع طاعة الملك والسلطان وولاة الإسلام وما يجب للسلطان على الرعية وما يجب لهم عليه ، والأبواب التي تليه على موضوع فيما يجب على من صحب السلطان والتحذير من صحبته وفي ذكر الوزراء وصفاتهم وأحوالهم والحجاب والولاية وما فيها من الغرر والخطر والقضاء وأهم أموره والعدل والإحسان والإنصاف وعواقب الظلم وذكر الظلمة وأحوالهم (٥٥).

أما أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء (٥٦) أبو حيان التوحيدي (المتوفى في حدود سنة ٤٠٠هـ/) فقد ركز في كتابه البصائر والذخائر على التجربة العربية فأورد الكثير من الوصايا والرسائل والخطب السياسية والإدارية والتواقيع للخلفاء الولاة والعمال في عهود

دول الإسلام الراشدي والأموي والعباسي ، فضلاً عما جاء في الأثر والأحاديث النبوية الشريفة في الإدارة وسياسة الدول والرعية ، كما ذكر فيه جوانب من سياسة الفرس (٥٧) .

في كتابه الإمتاع والمؤانسة قيد التوحيدي كل ما جرى في مجالسه مع الوزير أبو عبد الله الحسين بن أحمد أبن سعدان وزير صمصام الدولة البويهي الذي كان قد طلب من التوحيدي من قبل أن يؤلف له كتاب في الصداقة والصديق وقد بلغت هذه المجالس التي سامره فيها سبعا وثلاثين ليلة (في الكتاب قسمت إلى أربعين ليلة) ، وكان الوزير في هذه المجالسات يطرح الأسئلة على التوحيدي بمسائل مختلفة فيجيبه أبو حيان عنها .

كشف التوحيدي في كتبه عن توقد قريحة وغزارة معلوماته وعمق ثقافته كمثل كتابه الإمتاع والمؤانسة الذي صور فيه جوانب من الثقافة العامة وهو يذكر ما يخص الحكام والإداريين وغيرهم من رجالات الدولة في الأمثلة والتشبيهات من فلسفة وأخلاق وكلام وشريعة وتصوف ولغة وطبيعة وإلهيات وغير ذلك من المعارف ، وقد طلب منه صديقه أبو الوفا بحق فضله عليه في تقريبه من الوزير أن يقص عليه كل ما دار بينه وبين الوزير من حديث (٥٨) فيفكر التوحيدي وهو يلبي طلب صديقه أن يحول مجالسه هذه إلى كتاب فيخاطبه في ذلك قائلاً :" ... قد فهمتُ أيهُا الشيخ – حفظ الله رُوحَك ووكل السلامة بك ...جميع ما قلته لي بالأمس فهماً بليغاً ووعيتُه وعياً تامّاً ، وبان لي الرُّشْدُ في جملتِهِ وتفصيله والصلاحُ في طرفيه ووسطه

والغنيمةُ في ظاهره وباطنه والشفقةُ من أوّله إلى آخره ، وأنا أعيده هنا بالقلم وأرسمه بالخط وأقيده باللفظ حتى يكون اعترافي به أرْسَى وأثْبَت وشهادتي على نفسي أقوى وأوكد ونكولي [التراجع] عنه أبعد وأصعب وحكمك به لي وعلي أمضى وأنفذ ،،(٥٩) .

في أخلاق الوزيرين أو مثالبهما كتب التوحيدي عن الصاحب بن عباد وأبن العميد ، والظن عند بعض الباحثين أن اهتمام التوحيدي '' باستقصاء عيوب الناس لم يكن في الأصل مظهراً لبحثه عن أمارات التدني الأخلاقي ، وإنما كان في الأصل مصاحباً لميله إلى استجلاء ما غمض وخفي من سرائر النفس البشرية ،، (٦٠) ، وأهمية هذا الكتاب كونه جاء من أديب واسع الاطلاع كما انه واسع الصلة بالرعية ، وصف وزيرين كانا في مواقع الحكم والسلطة والجاه ومع انه كان حاقد عليهما إلا أنه لم يسقط ذاته وحقده إلا بالشكل الموضوعي ، فجاء الكتاب ليعرفنا على أثنين في مراكز القوة والسلطة استخدما سلطتهما في غير ما يجب استخدامها ، فكانت سيفاً للظلم وانحطاط الأخلاق وليس لرفع الظلم والسموّ بالأخلاق (٦١).

حاول الاسكافي (المتوفى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م) أن يجمع في كتابه لطف التدبير مجوعة كبيرة من القصص والحكايات والأخبار التاريخية كل ما يحتاج الملوك معرفته عسكرياً من تدبير الحروب وفتح القلاع والبلاد وكسر العساكر والجيوش وتسكين الشغب وإيقاع المكائد بالأعداء ولطف مداراة السلطان في دفع المكاره ، وكل ذلك بأسلوب أدبي رفيع المستوى (٦٢).

في كتابه تحفة الوزراء يبين الثعالبي (المتوفى سنة ٤٢٩هـ/١٠٣٧م) الذي كان سباقاً به في البحث باشتقاق تسمية الوزير وتعريف الوزارة وتصنيف أنواعها وشروطها [المؤهلات] ومراسيمها وآدابها وأقسامها ورسومها ومنافعها وحاجة الخلفاء إليها بالنصح والاستشارة وكتمان الأسرار فضلاً عن أخلاقياتهم وبعض سلوكياتهم مقتطفات من نكتهم ومدائحهم وبعض توقيعاتهم(٦٣).

لم يقتصر التأليف في الآداب السلطانية أو مرايا الأمراء على الأدباء بل شاركهم الفلاسفة والأطباء فكان للفكر الفلسفي العربي الإسلامي نصيب في الآداب السلطانية وذلك من خلال طروحات الطبيب والفيلسوف الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩هـ/٩٥٠م) في كتابه المدينة الفاضلة وكتابه الآخر السياسة المدنية ، والتي تعتبر مصدر مهم من مصادر تعليم الفكر الفلسفي السياسي فقد ربط بين السياسة والأخلاق والفلسفة (٦٤).

أما أبن سينا (المتوفى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٧م) فقد وجد في آراء الفارابي الذي عده معلمه الاول نطاقاً ممتازاً شجعه على صياغة الآراء والعبارات الأكثر وضوحاً في وظائف السلطان التي بتمامها وكماله تستقر المدينة ويكون ضبطها بحسن الترتيب ومعرفة الداخل والخارج من مواردها ، وأعداد الأسلحة والحقوق والثغور ، وما هذا الوضوح والتفصيل إلا لان ابن سينا مارس العمل الإداري واشتغل بالسياسة على عكس الفارابي (٦٥) .

أوصى الماوردي (المتوفى سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م) بنشر كتابه الأحكام السلطانية بعد وفاته ولعل سبب ذلك هو ماجاء به الكتاب فقد وضع فيه الماوردي حقيقة أفكاره السياسية بإطار وأسلوب فقهي ولم تكن مجرد أشارات وتلميحات ، ذلك انه قارن بين الواقع العملي وبين الحجج والأدلة التي استقاها من النظرية الفقهية كاشفاً بذلك حقيقة السلطة التنفيذية أينا كانت وشروط شرعية حكمها وما يجب أن يكون سيرها ، فقد عرف الإمامة مبيناً ما يعتقده من شروط تقلدها وكيفية انعقادها موضحاً العلاقة بين الدولة والإمامة وبينهما وبين الرعية ، وأجرى طريقته على ما كتبه عن تقليد الوزارة وتقليد الإمارة والولاية على المصالح وولاية القضاء والمظالم والنقابة وغير ذلك من دواوين الدولة (٦٦) .

تناول الماوردي الوزارة في كتابه أدب الوزير وهو عبارة عن رسائل في آداب الوزارة ورسومها وأحكامها بمعنى توضيح نظام الوزارة وكيف تطورت مراسيمها ، وأنواعها ومؤهلاتها والشروط التي يجب توفرها فيمن يتولاها وعلاقة الوزراء ببعضهم وبمن يرأسهم والمعنى علاقته بالسلطان والحرص على مصالح السلطان ، وفي اشتقاق أسم الوزارة ومعناها ، وهو بعد يبين خطورة وظيفة الوزارة مخاطبا الوزير بشكل مباشر قائلا : ''أعلم أيها الوزير أنك مباشر لتدبير ملك له أس هو الدين المشروع ونظام هو الحق المتبوع ...'' (٦٧) والماوردي هنا يخاطب الوزراء عامة دون تخصيص وزير بعينه ، ومن نصائحه للوزير التمسك بالدين والعدل

وذم الغضب ووجوب ابتعاد الوزير منه والاسترواح للاستعانة بالجد على مصابرة الجد (٦٨).

في أخريات حياته وضع الوزير الخطير نظام الملك كتابه سياسة نامة ، قد صب فيه عصارة أفكاره وتجاربه فهو أشبه بمذكرات سياسي ، وقد أبتعد فيها عن التصدي لحوادث حياته الخاصة وأنصرف تماماً إلى والإرشاد إلى السبل التي تدار بها الممالك والدول، وقد أغنى الكتاب بالآراء الحكيمة والنصائح والحكايات التي تدور حول سياسة الحكم والمنهج الرشيد في تسيير شؤون الدولة . وكشف نظام الملك عن نواحي مهمة من أوضاع الحكم وأجهزت الإدارة ورسومها وقواعد السلوك فيها وعلاقتها بالطبقات الاجتماعية ، وأكد على أن بنيان المملكة والحفاظ عليها لا يقوم إلا على العدل المطلق منبها على هذه المسألة مراراً وتكراراً (٦٩) .

أشار المرادي (المتوفى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٥م) في عنوان كتابه السياسة أو الإشارة إلى تدبير الإمارة إلى المحتوى في آداب الإمارة والوزارة وأنواع الإدارة والاستشارة (٧٠) ، وقد قسمه إلى ثلاثين باباً عرض فيها آراءه فيما يعقد انه النموذج المثالي لأخلاقيات السلطان من مثل الحلم والصبر والكلام والصمت والغضب والرضا والتجبر والخضوع والحزم والتفريط والكتمان والجود والإمساك والشجاعة والجبن والتحبب والمواصلة والحيلة والمكر والتداهي والتغلغل في الوظائف من وزارة وحجابه وكتابة وولاة المظالم والحسبة والشرطة وصاحب البريد وعامل الزكاة والسفير فضلاً عن

المستشارين والحاشية والخواص والبطانة والجند [٧١] وصفة الكتاب والأعوان والحجاب والآداب بحضرة الملك وجنده [٧٢] والحزم والتفريط والتجبر والخضوع والحلم واصبر في الكلام والصمت والكتمان والعجلة والتواني والأنفاق والجود والإمساك [٧٣] والشجاعة والجبن والحرب والمسالمة والتحبب والحيلة والمكر والخديعة والدهاء [٧٤] وفنون الحكم والآداب [٧٥] .

نقل الغزالي (المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ/١١١١م) في كتابه التبر المسبوك في نصيحة الملوك عن الفلاسفة اليونان والرومان ، فضلاً عن القصص والحكايات من الأزمان التاريخية المختلفة ، فمن سقراط وأفلاطون إلى الفارابي ، ومن ملوك الفرس إلى بني إسرائيل ومن ذي القرنين إلى قصص الأنبياء إلى عهود التاريخ الإسلامي عهد النبوة والراشدي والأموي والعباسي وخلال كل ذلك بقى هدفه الديني واضحاً في نصائحه بموافقة الشرع في الحكم والإدارة وسياسة الدولة والحث على العلم [٧٦] .

حين أراد الطرطوشي (المتوفى سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م) أن يجمع سير حكام الدول والملوك في كتابه سراج الملوك وجد " ذلك في ست من الأمم وهم العرب والفرس والروم والهند والسند والسندهند، فأما ملوك الصين وحكماؤهم فلم يصل إلى أرض العرب من سياساتهم شيء كثير لبعد الشقة وطول المسافة " [٧٧] .

رتب الطرطوشي كتابه على أربع وستين باباً بفصول بارعة من الوعظ والنصيحة وذكر الآداب التي يستكمل بها الملك بهاءه

وكماله ، ورغم العبارات القاسية التي يستعملها الطرطوشي في نصائحه إلا أنه لا يصل إلى حد التحريض ضد السلطان ، فحتى لو جار السلطان على الرعية فأنه يورد النصوص الدينية التي تدعو الرعية على الصبر وإلا فأن '' من خرج من السلطان شبراً مات ميتة جاهلية '' ، وما يجب أن يتحلى به أعوان الملك وما يجب التحذير منه وتذكيره بهوان الدنيا وهلاك الملوك والسلاطين في غابر الزمان وأحوال الأمم البائدة وهو يبغي تزهيد السلطان في الدنيا وفن الحكم ، وقد خصص تسعة فصول للوزير وأمراء الجيوش والولاة والعمال وصحبة السلطان والاستشارة والاهتمام بمفهوم الرعية وتدبير أمورهم، وما يرتبط بهم من العدل وسيرة الحكم معهم ومع جنده وغيرها من أمور الدولة ، ولم يترك مثل أو حكمة إلا أوردها ولا شاردة إلا قيدها ولا فصلاً مختاراً إلا سطره ولا كلاماً فصيحاً إلا حرره ولا حكاية غريبة إلا ساقها ولا نادرة عجيبة إلا قصها ولا عبرة إلا ذكرها ولا مأثرة إلا نشرها (٧٨).

أما الشيزري فقد ركز في كتابه النهج المسلوك في سياسة الملوك على أدب صحبة الملوك وآداب الملوك في جلوسه وركوبه ، وضرورة المشورة والجلوس للمظالم وغيرها من الأمور التي جعلها بشكل صفات محمودة حث عليها وصفات مذمومة نفر منها (٧٩).

طغت الآراء الفلسفية على أبن أبي الربيع (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) في كتابه سلوك المالك في تدبير الممالك فقد تأثر بالفلسفة والفكر السياسي اليوناني وخاصة كتابات

أرسطو وأفلاطون [٨٠] ومن آرائه الشخصية رأيه في شكل نظام الحكم فقد رأى توحيده بنظام ملكي حيث يقوم على حكم الفرد مشفوعاً بالتفويض الإلهي للحكام " أن الله خص الملوك كرامته ومكن لهم في بلاده وخولهم عباده " [٨١] ، وقد نهج ابن أبي الربيع في كتابه سلوك المالك أن يختم كل فصل من فصول كتابه حكمه أو مثل أو وصية أو نصيحة عامة للملوك والأمراء ورجال الدولة من الوزراء والولاة والقضاة فضلا عن العلماء والحكماء بغاية تأكيد الفائدة والنفع[٨٢] ومن أبرز آراءه إن الإنسان الفاضل هو الذي يطيع الله والرسول (عليه وآله أفضل الصلاة والسلام) وعمل الفضائل واجتناب الرذائل ، فمزج بين أوامر الدين وتوجيه الفلسفة [٨٣] .

الخاتمة :

لم ينعزل المؤلفون ولا المفكرون ولا العلماء العرب المسلمين عن الحياة السياسية يوماً ، لا بل أنهم ألزموا أنفسهم تحمل مسؤولية مجتمعاتهم وقول كلمتهم بصدق وبنية حسنة وجرأة عالية وبرصانة بوجه السلطة من أجل الحق والعدل والأنصاف ، وقد دفع البعض منهم حياته ثمناً لذلك كابن المقفع على سبيل المثال .

أنتشرت مؤلفات الآداب السلطانية شرقاً وغرباً من العالم الإسلامي ، وتميزت بكونها وعظية أخلاقية ذات طابع وبعد سياسي ، جاءت كدليل عمل دستوري ومرجعي وتوجيهي لما يجب أن يكون علية الحكم وما يفترض أن تتصف به الإدارة الناجحة العادلة . وتنوعت هذه المؤلفات في مواردها بتعدد الانتماءات الثقافية والبيئات الاجتماعية لمؤلفيها فمنهم الوزير والعالم والطبيب والفيلسوف والمؤرخ والأديب وكاتب ديوان ،وتلونت بكثر من لون في اتجاهاتها فهي ما بين الفقهية الصرفة والأخلاقية والفسفية والأدبية فضلاً عن السياسية ، وفي أحيان كثيرة كانت النظرة الفقهة تمتزج بالنظرة السياسية .

تباينت مادة هذه المؤلفات شما ونوعاً ، فهي رسائل وخطب ووصايا وعهود للحكام (ملوك وسلاطين وخلفاء) ، ونصائح ومواعظ ودروس وعبر وتجارب موجهة لهم ولرجال دولتهم ولخواصهم(حاشية وبطانة وأصحاب وجلساء) وللإداريين (الوزراء والقضاة والحجاب والمحتسب وصاحب الخراج والسفراء وأصحاب المظالم وعمال صدقات وزكاة وقادة الجيش) وذكرت صفات رجال الحكم وطبائعهم

وأحوالهم (سلوكياتهم وآدابهم وأخلاقهم) ومواصفات رجال الإدارة والقيادة وشروط اختيارهم ، فضلاً عن بيان ما يجب أن تكون عليه العلاقة مع الرعية باعتبارهم مرآة الحكم وعلى أساس ثنائية المجتمعات القائمة على الحاكم والمحكوم .

لم يقصد مؤلفون الآداب السلطانية حاكم أو إداري بعينه فالمساوئ لا تخص أحد والفضائل للجميع ، وهم في ذلك كالشعراء يكتبون القصائد ليمدحوا بها أشخاص معروفين وبمجرد حذف الأسماء يمكن أن تنطبق على أي شخص آخر ، ويتقمص المؤلف فيها دور المستشار الخاص والواعظ والمرشد الناصح للحكام والإداريين ، فيحثهم على الصفات المثالية النموذجية كي لا يكونوا مستبدين ، محبباً إليهم العدل وإغاثة المظلوم ضامناً لهم بها حفظ دولتهم وتثبيت حكمهم.

الهوامش : ـــ

١- التاج ، ص ص ٢ ، ٤ .

٢- تحفة الوزراء ، ص ٢٧ .

٣- الإشارة في تدبير الإمارة ، ص ١٦ .

٤- التبر المسبوك ، ص ٣ .

٥-سراج الملوك ، ص ص ٥ – ٦ .

٦-النهج المسلوك ، ص ٧٦ .

٧-كتاب الخراج ، ص ٣ .

٨- موقع نظام الملك ، أنظر قائمة المصادر .

٩-ص ص ١٣ ، ٥٨ . .

١٠- التوحيدي : البصائر والذخائر ، ج ٦ ، ص ١٣٨ ، ج ٧ ، ص ص ١٥٧–١٥٨ .

١١-ن . م ، ج ٢ ، ص ص ٦٣ ، ٧٧ ، ج ٩ ، ص ١٨٢ ؛ نهج البلاغة ، ج ٣ ، ص ص ٣٦٩ – ٣٨٧ .

١٢- التوحيدي : م . س ، ج ٢ ، ص ٢٦ ، ج ٥ ، ٢٢٦ ، ج ٦ ، ص ١٣٢ ، ج ٩ ، ص ١٦٨ .

١٣-كليلة ودمنة ، ص ص ١٠ – ١١ .

١٤-ن . م ، ص ٤٤ .

١٥- الجاحظ : التاج ، ص ٢ .

١٦-ن . م ، ص ٣ .

١٧-ن . م ، ص ٢ .

١٨- كليلة ودمنة ، ص ص ٤٤ – ٤٥ .

١٩-ن ، م ، ص ٣٢٢ .

٢٠- المرادي : م . س ، ص ١٦ .

٢١- الطرطوشي : م . س ، ص٥ .

٢٢- الغزالي : التبر المسبوك في نصيحة الملوك ، ص ص ٣ – ... ٤٨ ...

٢٣-ن . م ، ص ص ١٥ ، ٧٨ .

٢٤-ن . م ، ص ٧٧ .

٢٥-ن . م ، ص ص ٤٨ – ...

٢٦- أبن أبي الربيع ، ص ص ٥٧ –٥٨ ، ١٥٦ .

٢٧- الفارابي : آراء أهل المدينة الفاضلة ، ص ١٢٣ .

٢٨- أبن المقفع : الأدب الكبير والصغير ، ص ٢٢ .

٢٩- الجاحظ : المحاسن والأضداد ، ص ٢٣ .

٣٠-ص ص ٦٤ –٧٣ .

٣١- النهج المسلوك في سياسة الملوك ، ص ٨٢ .

٣٢-دعبل : وصايا الملوك وأبناء الملوك ، أنظر قائمة المصادر .

٣٣- الطرطوشي : م . س ، ص ٦ .

٣٤-سلوك المالك ، ص ص ١٥٥ – ١٥٦ .

٣٥-ن . م ، ص ٨٦ .

٣٦- الفارابي : م . س ، ص ١٢٣ .

٣٧- المرادي : م . س ، ص ١٦ .

٣٨- الجاحظ ، ص ٤ .

٣٩- المرادي : ، ص ١٦ .

٤٠- الغزالي : م . س ، ص ٨٦ .

٤١- ن . م ، ص ٨٧ .

٤٢- الأحكام السلطانية ، أنظر قائمة المصادر .

٤٣- أبـــن خلكـــان : وفيـــات الأعيـــان ، ج ٢ ، ص ١٢٨ ، الزركلـــي : الأعلام ، ج ٤ ، ص ١٤٠ .

٤٤- مسكويه : تهذيب الأخلاق ، ص ٤٢ ، أبو قتيبـــة الـــدينوري : عيـــون الأخبار ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

٤٥- أبن المقفع : كليلة ودمنة ، أنظر قائمة المصادر .

٤٦- أبن كثير : البداية والنهاية ، ج ٦ ، ص ٥٤ .

٤٧- التاج ،ص ص ٧-١٦ .

٤٨- ن . م ، ص ٣ .

٤٩- تنبيه الملوك والمكايد ، أنظر قائمة المصادر .

٥٠- دعبل : وصايا الملوك وأبناء الملوك ، أنظر قائمة المصادر .

٥١- ص ص ٤٩ – الصفحات ما بعدها ...

٥٢- العقد الفريد ، ج١ ، ص ص ٣١-١٠٣ .

٥٣- ن . م ، والجزء ، ص ص ١١٠ – ٢٢١ .

٥٤- ن . م ، ج ٢ ، ص ص ١٠٢ – ١٧٠ .

٥٥- المستطرف في كل فنٍ مستظرف ، ص ص ٩٨ – ١٢٣ .

٥٦- إبراهيم : أبو حيان التوحيدي ، ص ١٤٩ .

٥٧- البصائر والذخائر ، أنظر قائمة المصادر .

٥٨- إبراهيم : أبو حيان التوحيدي ، ص ١١٢ .

٥٩- التوحيدي : الإمتاع والمؤانسة ، ص ١٢ .

٦٠- إبراهيم : م . س ، ص ٢٦٥ .

٦١- أخلاق الوزيرين ، أنظر قائمة المصادر .

٦٢- لطف التدبير ، أنظر قائمة المصادر .

٦٣- ص ص ٣٥ - ...

٦٤- ص ص ١٧ ، ٣٤ .

٦٥- ن . م ، ص ص ١٢٠- ١٢٨ .

٦٦- ص ٤ .

٦٧- أدب الوزير ، ص ص ٣ ، ٩ ـــ ...

٦٨- ن . م ، ص ص ٤ – ٨ .

٦٩- سياسة نامة .

٧٠- المرادي ، ص ١٦ .

٧١- ن . م ، الفهرست ، ص ص ٦٩ – ٧٠ .

٧٢- ن . م ، والصفحات .

٧٣- ن . م ، والصفحات .

٧٤- ن . م ، ص ٧٠ .

٧٥- ن . م ، والصفحة .

٧٦- التبر ، ص ص ٢٦ ، ٧٣ .

٧٧- الطرطوشي : م . س ، ص ٤ .

٧٨- الطرطوشي : م . س ، ص ٥ .

٧٩- المرادي : م . س ، الفهرست ، ص ١٩٩ .

٨٠- أبن أبي الربيع : م . س ، ص ١٤ .

٨١- ن . م ، ص ٢٦ .

٨٢- سلوك المالك ، ص ص ١٦٨ – ١٨٠ .

٨٣- ن . م ، ص ١٣ .

المصادر :ـ

١- الابشيهي ، أبو الفتح شهاب الدين محمد بن أحمد(توفي بعد ٨٥٠هـ/١٤٤٦ م) : المستطرف في كُلِّ فنٍّ مستظرف ، شرحه ووضع هوامشه مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٣ ١٤٢٤ هـ/٢٠٠٤ م .

٢- الاسكافي ، محمد بن عبد الله الخطيب (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠ م) : لطف التدبير ، تحقيق أحمد عبد الباقي ، مطبعة السنة المحمدية ، مصر ، بلا طبعة ، ١٩٦٤ م .

٣-أبن أبي الربيع ، شهاب الدين أحمد بن محمد (عاش في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي) : سلوك المالك في تدبير الممالك ، دراسة وتحقيق ناجي التكريتي ، مطبعة تراث عويدات ، بيروت ، باريس ، ط١ ١٩٧٨م .

٤-أبن خلكان ، أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، أعداد إبراهيم شمس الدين ، حقق أصوله وكتب هوامشه يوسف علي طويل ومريم قاسم طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م .

٥-أبن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) :

أ – عيون الأخبار ، شرح وضبط وتعليق وترتيب وفهارس يوسف الطويل،دار الكتب العلمية بيروت ، ط ٣ ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣ م.

ب – الأدب الصغير والأدب الكبير ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، بلا طبعة ، ١٣٨٠هـ / ١٩٦٠ م .

٦-أبن عبد ربه ، أبو عمر أحمد بن محمد الأندلسي (ت ٣٢٨هـ / ٩٣٩م) : العقد الفريد ، تحقيق وشرح محمد التونجي ، دار صادر ، بيروت ، ط ٢ ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

٧-أبن كثير ، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٣ م) : البداية والنهاية تحقيق وتوثيق صدقي جميل العطار ، دار الفكر ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م .

٨-أبن المقفع ، أبو محمد عبد الله (ت ١٤٢هـ / ٧٥٩ م) : كليلة ودمنة ، ضبطه وشرح وقابل نصوصه حبيب يوسف مغنية ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، بلا طبعة ، ٢٠٠٦ م .

٩- التوحيدي ، أبو حيان علي بن محمد بن العباس (السنوات الهجرية المحتمل وفاته فيها ٣٦٠ أو في حدود سنة ٤٠٠ أوفي سنة ٤١٤هـ/ ١٠٠٩ م) :

أ – الإمتاع والمؤانسة ، تحقيق محمد حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد رشدي شحاتة عامر دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

ب – أخلاق الوزيرين (الصاحب بن عباد وأحمد بن العميد) ، وضع حواشيه خليل المنصور، دار الكتب العلمية ، بيروت ط ١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧ م .

ج – البصائر والذخائر ، تحقيق وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط٤ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩ م.

١٠- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ / ١٠٣٧ م) : تحفة الوزراء تحقيق حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار، شركة العاتك لصناعة الكتاب القاهرة ، ط ٢ ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

١١- الجاحظ ، أبو عثمان عَمْرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) :

أ – التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا ، بلا مطبعة ، بلا مكان ، بلا طبعة ١٩١٤ م .

ب – تنبيه الملوك والمكايد ، دراسة وتحقيق ياسر محمد ياسين وشهاب البدري وعباس فاضل ورحيم القدسي ومحمد كريم الجميلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

١٢- دعبل ، بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ / ٦٨٠ م) : وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود برواية علي بن محمد بن دعبل الخزاعي ، تحقيق نزار أباظة ، دار صادر، بيروت ، ط١ ١٩٩٧ م .

١٣- الشيزري ، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر (ت ٥٩٠هـ / ١١٩٣ م) : النهج المسلوك في سياسة الملوك ، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ملحق

ج – البصائر والذخائر ، تحقيق وداد القاضي ، دار صادر ، بيروت ، ط٤ ، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩ م.

١٠- الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل (ت ٤٢٩ / ١٠٣٧ م) : تحفة الوزراء تحقيق حبيب علي الراوي وابتسام مرهون الصفار، شركة العاتك لصناعة الكتاب القاهرة ، ط ٢ ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

١١- الجاحظ ، أبو عثمان عَمْرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) :

أ – التاج في أخلاق الملوك ، تحقيق أحمد زكي باشا ، بلا مطبعة ، بلا مكان ، بلا طبعة ١٩١٤ م .

ب – تنبيه الملوك والمكايد ، دراسة وتحقيق ياسر محمد ياسين وشهاب البدري وعباس فاضل ورحيم القدسي ومحمد كريم الجميلي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٧ م .

١٢- دعبل ، بن علي الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ / ٦٨٠ م) : وصايا الملوك وأبناء الملوك من ولد قحطان بن هود برواية علي بن محمد بن دعبل الخزاعي ، تحقيق نزار أباظة ، دار صادر، بيروت ، ط١ ١٩٩٧ م .

١٣- الشيزري ، عبد الرحمن بن عبد الله بن نصر (ت ٥٩٠هـ / ١١٩٣ م) : النهج المسلوك في سياسة الملوك ، تحقيق محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ملحق

بكتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الإمارة ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

١٤- الطرطوشي ، أبو بكر محمد بن محمد بن الوليد الفهري (ت ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م) : سراج الملوك ، المطبعة المحمودية التجارية ، مصر ، ١٣٥٤ هـ / ١٩٣٥ م .

١٥- الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥ هـ/ ١١١١ م) : التبر المسبوك في نصيحة الملوك مطبعة الآداب والمؤيد ، مصر ، ١٣١٧ هـ .

١٦- الفارابي ، أبو نصر محمد بن طرخان (ت٣٣٩هـ / ٩٥٠م) :

أ – آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها ، تقديم وتعليق وشرح علي بوملحم ، دار ومكتبة الهلال ، ط ١ ١٩٩٥ م .

ب – السياسة المدنية ، تقديم وشرح وتبويب علي بوملحم ، دار وكتبة الهلال ، ط ١ ، ١٩٩٦م.

١٧- المرادي ، أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمي (ت ٤٨٩ هـ / ١٠٩٥ م) : كتاب السياسة أو الإشارة في تدبير الأمارة ، تحقيق حسن محمد حسن إسماعيل وأحمد فريد المزيدي ، دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م .

١٨- مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب الرازي (ت ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م) : تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، تحقيق وشرح نواف الجراح ، دار صادر ، بيروت ، ط١ ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م .

١٩-نظام الملك ، خواجه أبو علي حسن بن علي أبن إسحاق طوسي (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢ م) : سياسة نامة (سير الملوك) ، دار القدس ، بيروت ، بلا طبعة ، ١٩٩١ م .

المراجع : ـــ

١-إبراهيم ، زكريا : أبو حيان التوحيدي ، سلسلة أعلام العرب ، مطبعة مصر ، المؤسسة المصرية العامة ، بلا مكان ، بلا طبعة ، بلا تاريخ .

٢-الزركلي ، خير الدين : الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط١٧ ، ٢٠٠٧ م .